المخطوطات

مخطوطة أندلسية فريدة في تراجم رجال مالقة

قاسم أحمد السامرائي

أستاذ في قسم الكتب والمعلومات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً - متفرغ للبحث حالياً

في يوم الأحد: الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ١٤٠٨هـ وقعت بيدي مخطوطة أندلسية فريدة محفوظة في مكتبة خاصة في مدينة الرباط بالمملكة المغربية حين زرت مالكها في داره برفقة الأخ الدكتور يحيى محمود ساعاتي وصديقي المستشرق الهولندي الدكتور/بيتر شورد فان كوننكزفيلد، فتفضل مالكها فسمح لنا بفحصها، فأحببت أن أُعرِّف بها وأنبِّه المعنيين بالأدب أو التاريخ الأندلسي إلى أهميتها القصوى في التعرف على جوانب ما تزال مجهولة من تاريخ الأندلس الإسلامي المفقود.

تقع المخطوطة في ١٠٥ ورقات، وكتب النص بالمداد الأسود والأحمر بخط النسخ الأندلسي الواضح على نوعين من الكاغد، أولهما: عربي سميك يعود إلى القرن التاسع للهجرة وأوراقه قليلة، والثاني: وهو الأغلب أوربي أبيض يعود إلى القرن العاشر (السادس عشر للميلاد) تظهر فيه الخطوط المائية المتوازية والعلامة المائية فيه على شكل عنقود عنب. أما تسفيرها (أي تجليدها) فهو مغربي حديث جداً. والنسخة مرممة ترميماً بدائياً سيئاً طمس الكثير من أسطر رؤوس الصفحات فأخفاها. وفي آخر النسخة نقص لا يزيد على بضع ورقات، وفي داخلها نقص آخر يقع في ورقة واحدة أو اثنتين إحداهما أو ثنتاهما ما تزالان محفوظتين ــ كما سمعت ــ عند أحد الفضلاء في الرباط.

صفحة العنوان وما فيها من معلومات أخفتها ورقة ألصقت حديثاً عليها، ومثل هذا أيضاً حدث في صفحة أخرى في ثنايا المخطوطة.

تبدأ المخطوطة في الورقة ١ أ كما يأتي :

«كتاب جمع فيه بعض فقهاء مالقة وأدبائهم مما ابتدأ تأليفه الفقيه المتفنن محمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني المشهور بابن عسكر وقد كلمه ولد أخته محمد بن محمد بن خميس لما عاجلته منيته. وجمع في هذا الكتاب من سكن مالقة ودخلها أو اجتاز عليها وجملاً من أخبارهم وأدبهم ومحاسنهم ومراسلتهم وبلاغتهم وذكر من أخذوا عنه من فقهاء الأندلس وغيرهم».

وابتدأ المؤلف كتابه بترجمة «أبي عبد الله محمد بن عميثل العاملي» وانتهى بترجمة «يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى البلوي».

آخرها: «ولم يشتغل بالطريقة حتى طاف بالحَرَم فوقف بتلك المقامات والحُرَم وتوفي رحمه الله في يوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر السادس من رمضان عام أربعة وستمائة بمصر (؟) [...][١] وجعل الجنة له منتجعاً[٢] ومناباً بمنه وكرمه هـ».

الأمر الغريب في هذه المخطوطة أنها معروفة جداً عند غالبية المعنيين بالمخطوطات بعامة والتاريخ المغربي والأندلسي بخاصة من العلماء المغاربة وبعض المشارقة إلا أنه لم يجرؤ أحد بعد على تحقيقها ونشرها مع وجود أصلها وبعض النسخ من مصوراتها عند جملة من هؤلاء العلماء، فقد أشار إليها كل من الدكتور المؤرخ محمد بن شريفة الذي اعتمد نسخة مصورة منها زوده بها الشيخ الفقيه العرائشي المكناسي[٣] في تحقيقه لبعض أجزاء كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي المتوفى سنة ٧٠٣هـ وبخاصة الجزء الثامن[٤] فقد كان هذا الكتاب من مصادر ابن عبد الملك المراكشي[٥]، والأستاذ إبراهيم بن مراد الذي اختار من المخطوطة هذه جملة من القصائد في كتابه: «مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها»[٦]. وقال في مقدمة كتابه هذا إن الدكتور إحسان عباس: «أبدى ملاحظات مفيدة جداً قد نبهتنا خاصة إلى ما بين مجموعنا الشعري (يشير إلى مخطوطة في رصيد حسن حسني عبد الوهاب مجهولة المؤلف) وكتاب أدباء مالقة... أما الأستاذ [محمد] المنوّني فقد أمدنا بصورة مكبرة من مخطوطة أدباء مالقة. وقد أفدنا من كتاب ابن خميس إفادة كبيرة في التعريف ببعض الشعراء الذين لم نقف على تراجمهم عند غيره». والظاهر أن هذه المخطوطة لم تكن ملكاً للعالم المؤرخ الجليل محمد المنّوني ــ أمتعنا الله تعالى بحياته وعلمه ــ مع أنه يحتفظ بنسخة مصورة منها مسبّلة متاحة لكل طالب علم، شأنها شأن كل ما يملك هذا العالم الجليل. والظاهر أيضاً أن إحسان عباس استعمل نسخة مصورة منها في تحقيقه لبعض أجزاء الذيل والتكملة مما يظهر في بعض الإشارات إلى المخطوطة نفسها في الحواشي.

يجمع كل من ترجم لابن عسكر أنه ألف كتاب الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام و هو صلة وتكملة لكتاب الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبي العباس أصبغ بن علي بن هشام بن عبد الله المالقي (المتوفى سنة ٥٩٢هـ) إلا أن منيته اخترمته قبل أن يتم كتابه حيث وصل إلى حرف الميم من تراجمه، فتولى ابن أخته أبو بكر محمد بن محمد ابن علي بن خميس إكماله[٧].

فيذكر السخاوي في الإعلان بالتوبيخ أن أبا بكر محمد بن علي ابن خميس صنف كتاب «تاريخ مالقة» وأورد شيئاً من مقدمة هذا الكتاب[٨] الذي كان من مصادر تاريخ علماء الأندلس لابن الزبير والمعروف بصلة الصلة[٩]، بيد أننا لا نجد هذه المقدمة في المخطوطة التي كانت بين أيدينا. وذكر السخاوي أيضاً: أن ابن خميس صنف أيضاً في تاريخ الجزيرة الخضراء بالأندلس[١٠] وأضاف: «وعمل أبو عبد الله محمد بن علي بن خضر بن عسكر الغساني تاريخاً لمالقة لم يكمله فأكمله ابن أخته أبو بكر محمد بن محمد بن معلى بن خميس وسماه «مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد مالهم من المناقب والآثار»، واستمدَّ فيه من تاريخ ابن الفرضي وصلة ابن بشكوال وتاريخ الحميدي والرازي وابن حيان بل ورجال مالقة المؤلف للحكم المستنصر، وانتهى كتاب ابن خميس في سنة تسع وثلاثين وستمائة، وهو في مجلد لطيف على حروف المعجم»[١١].

الواضح من أقوال المؤرخين الذين ترجموا لابن عسكر أنه وصل إلى منتصف حرف الميم من تراجمه وأن ابن أخته أكمله، والسؤال هنا: هل أكمل كتاب خاله في مصنف جديد وهو لذلك اختار له اسماً غير اسم كتاب خاله أو أنه ألغى اسم كتاب خاله بعنوان كتابه الجديد؟ فإذا كان الأمر كذلك فإن ما وصل في هذه المخطوطة إلينا إنما هو قطعة من الكتاب. أو أنه ابتدأ حيث انتهى خاله في تراجم حرف الميم إلى الياء؟ وكل هذا ينفيه العنوان الفضفاض الذي اختاره لكتابه وقول السخاوي «على حروف المعجم» الذي يوحي أن ابن خميس أدخل كتاب خاله في كتابه وأضاف إليه وهو لذلك اختار له اسماً جديداً شاملاً للعنوانين. فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا يعزز ما قلناه أولاً إضافة إلى أن السخاوي نقل لنا عنوان كتاب ابن خميس كاملاً فلا بد أنه رأى مخطوطة كاملة منه لأن هذا العنوان لا يظهر في المخطوطة التي رأيناها وفحصناها بتأن وإمعان. فهل يسعفنا علماء المغرب الحبيب بتعليل لكل هذه الاستفسارات؟

وكلمة أخيرة: إن هذه المخطوطة نفيسة في تفردها بجملة من المعلومات عن أدباء وعلماء مالقة إضافة إلى احتوائها على إشارات تاريخية نادرة لا تتوفر في كثير من المصادر الأندلسية التي وصلت إلينا فهي لذلك جديرة بالتحقيق وقمينة بالنشر والإشاعة.

الهوامش

(١) ما بين المعقوفتين مطموس بفعل البلى لم أستطع قراءته.

(٢) في الأصل كلمة لم أستطع قراءتها على وجه التحقيق واليقين فلعل ما أثبتناه هو الصواب.

(٣) انظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٩٨٤م، الجزء الثامن/صفحة ٦٥٤.

(٤) انظر مثلاً صفحة ٤٤١ من الجزء الأول والصفحات ٢٤١، ٢٤٥، ٥١٠ من الجزء الثامن من كتاب الذيل والتكملة وهما من تحقيق الأستاذ المؤرخ محمد بن شريفة.

(٥) نشر الدكتور إحسان عباس ما وصل إلينا من الجزء الرابع والأجزاء الخامس بقسميه والسادس ــ دار الثقافة ببيروت ــ ١٩٦٤م، ١٩٦٥م، ١٩٧٣م، ومع جودة تحقيق الكتاب فإن المحققين أغفلا تزويد الكتاب بفهارس شاملة للكتاب مما حدَّ الاستفادة من الأعلام الواردة في ثنايا التراجم.

(٦) نشر في دار الغرب الإسلامي للحبيب اللمسي، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. انظر الصفحات ٦ و٨٧ ــ ٨٨.

(٧) انظر الذيل والتكملة ٤٤١/١ مع مصادر ترجمته، ٤٥٠/٦.

(٨) علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزنتال (ترجمة صالح العلي)، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م (الطبعة الثانية)، صفحة ٤١٧.

(٩) الجزء الثامن/صفحة ٥١٠ مثلاً وهو القسم من صلة الصلة لابن الزبير الذي نشره ابن شريفة ملحقاً به.

(١٠) علم التاريخ عند المسلمين، صفحة ٦٢٧.

(١١) المصدر نفسه، صفحة ٦٤٠ ــ ٦٤١.